الآفاق المستقبليّة

لتكريس التعارف الثقافي من خلال موسم الحجّ

د. فريد شكري

الحجّ من أبرز النشاطات العالمية المميّزة للأُمّة الإسلامية، وهو نشاط عالمي مستمرّ منذ عهد النبيّ ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو تجسيد لدعوة إبراهيم عليه السلام، نقّحه الإسلام من ما علق به من أدران شابته في الجاهلية. وبما أنّنا نعيش في الألفية الثالثة، وما تعرفه من تطوّر كبير في الجانب التكنولوجي ـ وخاصّة المعلوماتي ـ يستدعي التفكير الجاد في تحقيق مقاصد الحجّ، وخاصّة استثمار التعدّدية الثقافية الإسلامية كأولوية مستقبلية، لاسيّما وأنّنا نعيش في أجواء المنافسة الحضارية التي قد يعبّر عنها في أقصى درجاتها بصدام الحضارات أو في ألطف صيغها بما يعرف بالعولمة.

والحاجة إلى تعميق التعارف بين الشعوب الإسلامية خلال موسم الحجّ، ملحّة وضرورية خاصّة وأنّه:

أوّلاً: مغيب عمليّاً وواقعيّاً، في الوعي الفردي والجمعي، لدى الحجّاج، وربما حتّى عند القائمين على شؤون الحجّ، بحيث نجد اهتماماً كبيراً بأبعاد أُخرى للحجّ ولاسيّما الجوانب المادّية والتجارية والنسكية

والإيمانية، مع غياب الاهتمام بجانب تعميق التواصل والتعارف بين الحجّاج.

ثانياً: خصوصية المرحلة الحضارية التي تعيشها أُمّتنا الإسلامية، فهي مهدّدة في حضارتها وثقافتها من جرّاء العولمة التي تحرص على تنميط الشعوب واختراق خصوصيّاتها الثقافية لصبّها في بوتقة واحدة. ومن ثمّ، فإنّ الحجّ الذي يشكّل أحد أبرز مميّزات الأُمّة، ينبغي أن يستخدم لإعادة التأكيد علىٰ هوية الأُمّة، وتعميق فهمها لذاتها، وتحسين دورها في العالم اليوم.

وإذا كان مستقبل الحجّ المنشود هو تحقيق العالميّة الإسلامية بين الشعوب الإسلامية بمختلف مشاربها الحضارية والثقافية وتجسيد التنوّع في إطار الوحدة، فإنّ ذلك لا يتمّ إلّا عبر التحكم في حاضر الحجّ، وتفعيل كافّة مقاصده و«منافعه»، والوعي التامّ بخطورة تذويب هوية الأُمّة في عالم العولمة اليوم، وما يمكن أن ينتج عنها من آثار سلبية على حضارتنا وذاتيّتنا.

والذي يريد أن يصنع مستقبله لابدّ أن يتحكّم في حاضره، لأنّ الحاضر ماضي المستقبل ومستقبل الماضي، كما يقول عالم المستقبليات المهدي المنجرة، ومن لا حاضر له لا مستقبل له.

وليست المستقبليّات علماً يتنبّأ بما سيكون عليه العالم في مستقبل الأيّام فحسب، بل هو العلم الذي يسعى لصنع المستقبل، انطلاقاً ممّا يتوفّر عليه من مقوّمات ورغبة في التغيير بالإرادة والفكر.

الحجّ بين مقاصد الأمر ومقاصد الخلق

إنّ المتأمّل في النصّ القرآني.. يرى أنّ الأحكام الشرعية تأتي مقرونة بمقاصدها وغاياتها، بل الأمر يتعدّى مقاصد الأمر.. إلى مقاصد الخلق ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾، وسلوك القرآن هذا المسلك في إيراد الأحكام الشرعية، وراءه عدّة مقاصد منهجية منها:

المقصد الأوّل: تحقيق الوعي لدى المسلم بمقاصد الحكم حتّى يحرص على تحقيقه وشهود أثره على نفسه

وعلى محيطه الاجتماعي، لأنّ المقصد هو ثمرة التكليف.

المقصد الثاني: أن تكون المقاصد ميزاناً ومعياراً نعير به التكاليف الشرعية بحيث يعتبر عدم تحقّقها وتخلّفها دليلاً على وجود خلل في العلاقة مع الحكم الشرعي، فلا يكون مجرّد إنجاز العمل دليلاً على صحّته، وإنّما إنجاحه وتحقّق مقاصده هو الدليل على صحّته. وبهذا يغيب التعامل الطقوسي الشعائري الشكلي مع التكاليف الشرعية، لتسري هذه الروح المقاصدية؛ لأنّ المقاصد «أرواح الأعمال»، كما يقول الشاطبي.

المقصد الثالث: أن يجتهد المكلّف وكلّ من له علاقة بالحكم الشرعي تنفيذاً وتنزيلاً في تدعيم كافّة الوسائل المنصوص عليها شرعيّاً، لتفضي إلى تحقيق المقاصد.

المقصد الرابع: التفكير والاجتهاد في إبداع وسائل جديدة وإمكانيات مستحدثة لتحقيق المقاصد الشرعية.

المقصد الخامس: الدلالة على أن لا تعارض بين الامتثال والانقياد للتكاليف الشرعية وبين عقلها وفهم حكمها ومقاصدها، وأنّ التسليم القلبي لا ينافي التحكيم العقلي. ويمكن استعارة العبارة الشهيرة لابن رشد مع تعديل الدلالة الاصطلاحية بما يناسب مقامنا: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتّصال».

فإذا كانت هذه بعض مقاصد الأمر، فإنّ النصّ على مقاصد الخلق يقصد إلى أن تصبّ المقاصد الأمرية في المقاصد الخلقية ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾.

أمّا بخصوص موضوعنا، فإنّ مقاصد الحجّ منصوص عليها في قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ...**﴾.

فبجانب المقصد الروحي، هناك المقصد الدنيوي «منافع»، وورود «منافع» بصيغة التنكير يدلّ على التكثير، ممّا يجعل مقاصد الحجّ منفتحة على كلّ ما يعود على الحاج

بالاستفادة والمنفعة والمصلحة حسب الإمكانات الحضارية المتجدّدة.

إذاً، فمنفعة التعارف بين الحجّاج على اختلاف انتماءاتهم الحضارية والثقافية، واستثمار هذه التعدّدية مقصدٌ من مقاصد الحجّ، خاصّة وأنّه ينسجم مع مقصد الخلق: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ فتدعيم وإبداع الوسائل المحقّقة لهذا التعارف الإسلامي مطلوب شرعاً وطبعاً، فللوسائل حكم المقاصد، وما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجبٌ. ولقد انتبه الأستاذ سيّد قطب بذكاء إلى هذا البُعد العالمي للحجّ، والمنفعة التعارفية له بقوله:

«وهو مؤتمر للتعارف، والتشاور، وتنسيق الخطط، وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب، وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرّة كلّ عام في ظلّ الله، بالقرب من بيت الله في ظلال الطاعات البعيدة والقريبة والذكريات الغائبة الحاضرة في أنسب مكان وأنسب جوّ وأنسب زمان، فلذلك يقول الله: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾، كلّ جيل بحسب ظروفه وحاجياته وتجاربه ومقتضياته، وذلك بقصد ما أراد الله بالحجّ يوم أن فرض على المسلمين وأمر إبراهيم أن يؤذّن في الناس»(١).

الحجّ بين الأمس واليوم

رغم أنّ حقيقة الحجّ واحدة لم تتغيّر منذ إبراهيم، ومروراً بسيّدنا محمّد، وانتهاءً إلى اليوم، فإنّ الوسائل الخادمة له والإمكانات الحضارية المحقّقة له قد عرفت تطوّراً كبيراً، عرفت ذروتها في عصرنا هذا، ممّا جعل تحصيل مقاصد الحجّ قبل الحجّ أيضاً متفاوتاً، ذلك أنّ الحاجّ الذي كان يقطع الرحلة في شهور وأسابيع عبر بلدان متعدّدة ومتنوّعة، يبيت بها ويحتكّ بأهلها، ويقف على خصائصها الاجتماعية والحضارية، جعلته يقف على التعدّدية الثقافية للشعوب الإسلامية حقيقةً قبل أن يحجّ، بحيث يعمّق الوعي بها عندما يحجّ.

ولقد تركت لنا ثقافتنا الإسلامية، جنساً أدبياً عرف بأدب الرحلة(٢)، سطّر فيه العديد من علماء ومبدعي الأُمّة مادّة سيريّة جميلة تحكي رحلتهم إلى بيت الله العتيق وأداء مناسك الحجّ وزيارة الرسول ﷺ، ممّا يشكّل لنا اليوم مادّة تاريخية وانتروبولوجية وحضارية وجغرافية رائعة من جهة، ويقف بنا على أبعاد جديدة للحجّ وخاصّة الجانب التعارفي.

إنّ تطوير المواصلات ووسائل النقل من الجَمَل إلى أحدث أنواع الطائرات، بقدر ما رفع المشقّة عن الحاجّ أو كاد، وطويت له المسافات في بضع ساعات بدل الأسابيع والشهور كما في الماضي القريب، إلّا أنّها حرمته من هذا الاختراق العمودي لثقافات وحضارات الشعوب الإسلامية. لقد هجرت «طرق الحجّ» وما قام حولها من حياة ثقافية وحضارية، لقد كانت هذه الرحلة تمكّن للحاج أن يقف على التعددية الثقافية والحضارية للشعوب الإسلامية وقفة تكسبه تجربة ودربة ودراية بما عليه أحوال الأُمّة، وتوسيع مداركه فيتحوّل من إنسان «محلّي» إلى إنسان «عالمي»، وكلّ ذلك يقع عليه قبل أن يحجّ، فما أن يصل إلى صعيد الحجّ، حتّى يتعمّق ويزداد إدراكه بأحوال الأُمّة. إذن هناك فرق بين حاج يعرف الأُمّة في أثناء الحجّ بعدما عرف طرفاً منها في طريقه إلى الحجّ، وبين حاج عليه أن يتعرّف عليها في عجالة أثناء الحجّ: الفرق بين من كسب خبرة ميدانية وتحمّل في سبيل ذلك أنواع عديدة من المشاقّ، ومن عليه أن يعرفها في وقت قصير، ربما كان على الأخير ـ وللأسف ـ أن يقبل بما يسمّى بالصور النمطية، وهي صور جامدة معلّبة جاهزة وفي معظم الأوقات غير صحيحة، وربّما سلبية عن غيره من المسلمين، فهي تعيق التعارف بدلاً من أن تعمّقه، وتشكّل تصوّرات تنفّر المسلمين عن بعضهم بل تخيفهم من التقارب من بعضهم لمزيد التعارف بدلاً من أن تعمّق، وتزيل ما يمكن أن يحُول دون ذلك.

التحوّل في جانب المواصلات، مسّ حتّى الجانب النفسي والمعنوي والفلسفي، ذلك أنّ الحجّ قديماً كان مغامرةً بالنفس والمال ونوعاً من الجهاد، بينما هو اليوم «رحلة سياحيّة» ورحلة شخصية يمكن أن تساعد الحاجّ للالتحاق بركب الأُمّة تاريخاً وواقعاً، وبذلك تؤكّد على هويته وانتمائه وذاتيّته، في عصر أكبر ما يهدّد أي إنسان ـ وبالذات المسلم ـ هو ما يشوّش الهوية والذات والانتماء!

لقد امتدّ التطوّر التكنولوجي إلى مجالات عديدة ممّا يعني أنّ آثار هذا التطوّر ـ كما ألمحنا ـ سيكون لها أثرها على ما سيكون عليه الحجّ، وكيف يؤدّي الحاج ركنه الخامس، رحلة العمر المشكلة لكائن جديد يعود للحياة كيوم ولدته أُمّه رغم تجاربه العديدة وإمداداته الحضارية الثقافية المتشعّبة. ولضرب بعض الأمثلة الموجزة لما يمكن أن يكون عليه مستقبل الحجّ في القريب، وما هو قائم من تطوّرات وإنجازات مذهلة وسريعة في تقنية المعلومات، نذكر أنّ بإمكان الحاجّ اليوم، وسيكون ذلك بشكل أوسع وأكثر تسارعاً في المستقبل القريب أن يحصل على كافّة المعلومات التفصيلية والموثّقة عن الحجّ مناسكياً وحضارياً وثقافياً وخدماتياً وتأريخياً وغيرها، معزّزة بالصور الثابتة والمتحرّكة، وما أدراك ممّا يسمّى بـ Virtual Reality التي ستمكّنه من رؤية الحجّ بالعين المجرّدة في أبعادها الثلاث رأي العين، وهو لمّا يبرح بلدته بعد، نعم ستمكّنه هذه التقنية من الحصول على البيانات والخرائط والمعلومات عمّا قد يخطر على باله قبل أن يحجّ أو يفكّر في الحجّ، بل إنّها ستحفّزه على اقتحام هذه «التجربة» ثقافياً وبأقلّ تكلفة وفي متناول يديه. فحسب ما توصّلت إليه من معلومات، بإمكان ملايين من المسلمين اليوم أن يتعرّفوا على أكثر من أربعين ألف موقع على الانترنت فيحصلوا على معلومات عن الحجّ ومقتضياته.

أنا شخصياً، تمكّنت من الحصول على ملفّ متكامل يحتوي على

معلومات تفصيلية عن الحجّ، وتاريخه، ونسكه، والخدمات التي يمكنني أن أفيد منها، وحسبما عرفت أنّ التقنية لا تزال في مراحلها الأوّلية، وما سيتمّ سيكون أكثر دقّةً وغنى وتنوّعاً.

بل إنّ تقنيّة المعلومات يمكن أن تزوّد الحاج بما يعرف بـ Smart Cart، وهي عبارة عن بطاقة الكترونية مدمّجة يمكن أن تحتوي على معلومات شخصية تفصيليّة عن الحاج من حيث خط سيره وتاريخه الطبّي لتقديم المساعدة التفصيليّة الضرورية عند الطلب وتفاصيل عن مطوفه ومكان إقامته، وكذلك معلومات تفصيليّة عن كلّ ما يمكن أن يحتاج إليه بحيث يمكنه مراجعتها حسب حاجته، ولربما بإمكانه أن يتعامل حاليّاً في بنكه مباشرةً، وإن كان دارساً يمكنه أن يحمل ما يحتاج من مراجع أو خلافه، كلّ ذلك في بطاقة صغيرة لا تحتلّ في متاعه مكاناً يُذكر!!

بل أنّ آفاق الاتّصال الذي يمكن أن تقدّمها التقنية الجديدة سواء في شكل هاتف محمول أو استخدام الانترنت للاتّصال بأسرته والحديث معهم بشكل تفصيلي، سيكون واسعاً ومتاحاً وغير مكلف على الإطلاق، ممّا سيمكّن الحاج مزيداً من التواصل والتعبير عن تجربته الحيّة. وكذلك ستمكّنه هذه الوسائط والإمكانيات التقنية الحديثة من توسيع دائرة معارفه من أبناء الأُمّة بأقلّ التكاليف وأكثرها دقّةً وفعّاليةً.

أعتقد أنّ بالإمكان القول ـ دون تردّد ـ أنّ اقتحام هذه الوسائل الجديدة عالم الحاج سيغيّر من صورة ما سيكون عليه الحجّ، وعلينا أن نفيد من هذه الوسائل المدهشة لتعميق الدلالات الرمزية، والمعاني الفلسفية، والقدرة التأمّلية لمعنى الحجّ وغاياته ومقاصده، وبالذات مسألة التواصل والتعارف بين أفراد الأُمّة؛ إذ أنّ هذه الوسائط والوسائل تقدّم للأُمّة فرصة ذهبية وكبيرة لمزيد تحقيق معنى «التعارف»، وهي وسيلة قويّة وفعّالة لتحقيق «منافع» الحجّ التي تشير إليها الآية!

الحجّ بين العولمة والعالميّة:

إنّ الجديد الذي يعرفه الحجّ ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ هو المناخ العولمي وهيمنة المعلوماتية، وما عرف حديثاً بـ Digital Divide لصالح الغرب، ممّا قد يحقّق تذويب العالم الإسلامي ثقافياً وتنميطه حضارياً.

يمكن اعتبار الحجّ عملياً ـ ولو بدون وعي من الحاج ـ فرصة لرفض هذه العولمة، وانخراطاً في عالمية الإسلام تظافراً مع الحضارات الأُخرىٰ، لمزيد تثبيت الهوية الإسلامية، وزيادة الشعور بالذات الثقافيّة.

فالعولمة، رغم ما تملكه من إمكانات ووسائل إعلامية متطوّرة، يمكن أن تسيطر بها وتصل بها إلى أيّ إنسان في أيّ مكان؛ لتعولمه على نمط واحد وتصوغه صياغة واحدة، ستبقى محدودة التأثير بالنظر لما يملكه الحجّ من خاصّية متفرّدة ومتميّزة، وهي وحدة الإنسان المخاطب شعوراً وانتماءاً وإيماناً ونبضاً، ووحدة الزمان (الأشهر المعلومات)، ووحدة المكان (المشاعر المقدّسة)، ممّا يجعله أقوى تأثيراً أو فعّالية إن أحسن استخدامه والتخطيط لذلك عن طريق الإعداد الجيّد والاستخدام الواعي لأدوات العصر وإنجازاته الإنسانية.

لكن، ورغم وجود هذه الخاصّية المتفرّدة للحجّ، فإنّه ـ للأسف ـ لم يستثمر بعدُ بالشكل المطلوب أو الكافي، بما يمكن تحويله إلى أداة ممكنة لمزيد من التعارف والتواصل والتآخي والتبادل (في كافّة المجالات: اقتصادية ومعرفية وثقافية وتعليمية وسياحية...) بين الشعوب الإسلامية، لتحقيق مزيد من المنافع البينيّة بينهم، بدلاً من أن تكون عبر وعن طريق وسيط غربي! إنّنا للأسف نلاحظ العكس، إذ أصبح عند البعض مؤكّداً للانكفاء على الذات أو القوميّة، خاصّة في ظلّ غياب التواصل اللساني بين الحجّاج بما يمكِّن المسلمين من التواصل وتبادل المنافع فيما بينهم!! إذ أقصى ما يخرج به الحاجّ الصورة النمطية التي يحملها معه من وطنه، وبما حوّرتها له وسائل الإعلام بحيث

يعلم عدم جدّيتها أو حتّى سوءها، ورغم مشاركته في موسم الحجّ إلّا أنّ ذلك لم يمكّنه من الوقوف على ما يمكن أن يكون مفاتيح تواصل ومعرفة ممتدّة بينه وبين إخوته في الإسلام، بما قد يفتح من آفاق واسعة لتوطيد علاقات أخوية تخدم اهتماماتهم ومصالحهم المشتركة! مع أنّ الحجّ فرصة ذهبية لإخراج مفهوم الوحدة الإسلامية من الكمون والقوّة إلى الفعل والواقع، إنّها فرصة لتحقيق مفهوم الأُمّة استجابةً لدعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، والتمكّن من حسن استثمار الحجّ على المستوى التعارفي للشعوب الإسلامية، لتحقيق عالميّة الإسلام وتجسيدها واقعياً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، هذه العالميّة التي تستوعب الحضارات والثقافات كافّة، وتحتفظ للشعوب بخصوصياتهم، وتعطيهم إمكانية تنزيل المعاني والمطلقات والقيم الإسلامية على أعرافهم وواقعهم المشبع برصيد ثقافي واجتماعي وحضاري، لقد أصبح ذلك ممكناً وميسّراً اليوم أكثر من أي وقت مضى، بسبب توفّر الأدوات والوسائل والوسائط الحديثة.

والعالميّة، تختلف عن العولمة، التي هي اختراق لخصوصيّات الشعوب وإذابتها، وجعلها في بوتقة واحدة، الأمر الذي يمكن أن نستشفّ رفضه من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فجعلُ الناس والأُمم والشعوب نمطاً واحداً تفكيراً وتعبيراً وذوقاً واختياراً ليس مقصداً خلقياً ولا أمرياً، فالتعدّدية مظهر للجمال والجلال، والحديقة تجمل بتعدّد ألوان زهورها وتنوّعها لا في توحّدها!!

الحجّ من التأثير إلى التأطير

إنّ الحجّ ـ بما يبعث في الحاج من قيم إيمانية ومعان روحية تعمّق فيه انكماش «الأنا» لصالح «النحن» ـ لهو كفيل بأن يمثّل صمّام أمانٍ تجاه العولمة القائمة على فلسفة خطيرة، هي سقوط المرجعيات القيميّة

ونسبيّتها، وجعل الإنسان مرجعية ذاته، وانكماش الـ «نحن» وبروز «الأنا».

إنّ الحقيقة التي يخرج بها الحاج من تجربة الحجّ على المستوى التصوّري والفلسفي والقيمي هو النظر إلى الأُمور نظرة مخالفة وحقيقيّة، قوامها الدِّين أوّلاً، والدُّنيا ثانياً، وأنّ الدين هو عصمة الأمر وهو الغاية، وبه تتحقّق المنافع، وأنَّ الدُّنيا معاش ووسيلة، ممّا يزيد من رفعة الإنسان، ويؤكّد له أنّ هذه القيم والأخلاق والمعتقدات إنّما تزيد من حسن تمتّعه بمباهج الدُّنيا، وتفعيلها لمعانٍ أرقى وأعلى شأناً وخطورةً.

والتحوّل الآخر الذي يعيشه الحاج هو تغيّر شعوره من فرد إلى أُمّة، من شخص له اهتماماته الفردية الآنيّة إلى إنسان كوني، تشغله مصلحة الإنسان في كلّ مكان.

إنَّ ولادة الحاجّ الجديدة تعدّ قفزة في تنميته وإنمائه، فهي تغيّر مفاهيمه وتصوّراته من المحدود والشكلي والعادي وسفاسف الأُمور إلى رحابة التصوّر الإسلامي ذي الأُفق الواسع الكوني الساعي ـ انطلاقاً من قيم أخلاقية ـ إلى تحقيق الأخوّة الإنسانية والوسطيّة والشهادة على العالمين، وتمكّنه بهذه الروح من العمل لتحقيق الشهود الحضاري، وتعمير واستعمار الأرض بما يكفل حياة سعيدة رغدة على المستويين النفسي / الروحي والمادّي / المعيشي في حياته وحياة الأُمّة!!

وبحكم هذا التصوّر لدى الحاجّ، يعمّق فيه الجانب القيمي ونكران الذات والاستعداد للتضحية بالأشخاص والأشياء في سبيل الأفكار والقيم متجاوزاً الفردية والمصلحية، ومن ثمّ يتحوّل إلى الشخص المنتج الفاعل العدل بدل الشخص المستهلك الخامل الكَل. إنّ معاني الحجّ ـ لو أحسن استثمارها وتعميقها ـ ستتجاوز بنا مرحلة الوهن الحضاري والغثائية التي حدّدها رسول الله ﷺ بقوله: حبّ الدُّنيا وكراهية الموت.

ورغم ما يشيعه خطاب العولمة: من أنّ العبرة في الفعل الحضاري لصالح

النفوذ والقوّة والكيف، وليس للكثرة والكمّ، وأنّ أعداد المسلمين التي تربو على المليار والنصف، وأعداد الحجّاج الذي يربو على المليونين، يجب أن لا تُغرينا بالثقة في ذاتنا، والإغترار بأعدادنا.

إلّا أنّ هذا الزعم مردود عليه للاعتبارات التالية:

أوّلاً: إنّ الحضارة التي تروّج لهذا الفهم أو الوهم تعاني من تراجع في أعدادها وديمغرافيتها، وتراجع في تمسّكها بدينها من حيث التردّد على أماكن العبادة، خاصّة من الشباب، وعاجزة عن إغراء شبابها بها بالعودة إلى التمسّك بأصول ثقافتها، في الوقت الذي تعرف مساجد المسلمين اكتظاظاً بالشباب وكذا في موسم الحجّ، وكذلك بازدياد رجوع الأُمّة الإسلامية إلى دينها وقيمها.

ثانياً: إنّ هذا الكمّ العددي الموجود في الحجّ هو نوعي في نفس الوقت، بكلّ المقاييس، اجتماعياً وحضارياً وعمرياً وفكرياً واقتصادياً وتمثيليّاً. صحيح أنّ الكمّ المذموم شرعاً وطبعاً، هو الكمّ الغثائي الذي عبّر عنه النبيّ ﷺ بقوله: «ولكنّكم كثير كغثاء السيل»، والمتأمّل لمصطلح «الغثاء» والوقوف على خصائصه، يرى بأنّه لفظ معبّر عن رداءة النوع، وافتقاد الرؤية، والبوصلة، والاتجاه، والأمعية، والخفّة، وانعدام الروح، وانعدام القواسم المشتركة.. بينما الحجّ يعتبر وسيلة فعّالة للتجاوز بهذه الأعداد من الغثائية إلى الإنتاجية والفعّالية، ومن ثَمّ تحويلها إلى أنواع وفعّاليات جديدة بإذن الله، عن طريق بثّ الروح الإسلامية فيها وتعميق القواسم المشتركة بينها لتذكيرها بالمصير المشترك الذي يجمعها ويحقّق الاستقلالية الذاتية لها. ولن يتحقّق هذا سوى عن طريق تطوير إمكانيات الحجّ، وتعميق مفهومه، واستثمار التعدّد الثقافي والحضاري للأُمّة، وخاصّة في الحجّ عبر الاستفادة منه، واستخدام وسائل الثقافة الجديدة المتطوّرة والمشاعة لتعميق ذلك.

ولعلّني لن أكون حالماً، بأنّي سأشاهد في سنوات حياتي القليلة

القادمة استخدام تكنولوجيا المعلومات لتمكين أبناء الأُمّة الإسلامية بكافّة المعلومات والتفاصيل الشرعية والمعيشيّة والتاريخية والاقتصادية للحجّ، وتيسير إجراءات الحجّ، حتّى يتفرّغ الحاجّ للتأمّل في هموم ومشاكل وطموحات وتوقّعات الأُمّة، والعمل ـ وبشكل جدّي ـ لتحقيقها، وأن أرى اليوم الذي يغدو فيه الحجّ مناسبة إنسانية كونية يحسّ بها العالم أجمع من خلال التغطيات الإعلامية المسؤولة والمعبّرة عن آفاق تفاصيل هذه التجربة الفريدة.

كذلك، أتمنّى أن تصبح عملية التواصل ونشر الفكر الإسلامي المستنير المؤمن بأهمّية الانفتاح للعالم تبليغاً لرسالة الإسلام الخالدة والمستفيد من تقنيات العصر من أجل «اختراق» العوالم الثقافية التي إمّا أنّها لم تسمع بقيم وتعاليم الإسلام أو أنّ ما تعرفه عنه تتلبّسه معيقات نكرة في الإسلام، تحول دون أن تتعرّف عليه في بساطته ونقائه، وما يمكنه أن يقدّم للإنسانية جمعاء من قيم وأخلاق ومعتقدات هي في أمسّ الحاجة إليه من أي وقتٍ مضىٰ.

آمل أن تصبح مناسبة الحجّ مناسبة فكرية ومعرفية وإيمانية لمزيد من تكامل وتآخي وتعارف أبناء الأُمّة بعضهم ببعض، وأعتقد أنّ وسائل التقنية الحديثة يمكن أن تسرع من إمكانات تحقيق هذا الحلم، وأن تصبح الأُمّة المسلمة فعّالة في حياة العصر بدلاً من أن تكون المستهدفة والضحيّة لوصمها بالتخلّف أو التجمّد.

إنّ إمكانيات الإسلام والمسلمين كبيرة، ولم تستخدم بالدرجة والصورة التي يمكن أن تقدّم بها في عصرنا الحالي. هل نحلم بمساحات واسعة في تقنية المعلومات في شكل Portal. ومواقع على الانترنت تمكّن المسلم من معرفة حقّه بدينه، وتفتح آفاقاً لغيره للإفادة من رسالة الإسلام، أعتقد أنّ حلمي، وحلم كلّ مسلم محبّ للإسلام وللإنسان، قريب التحقّق وسيكون الحجّ أحد أبرز وقائعه.

الهوامش:

١ ـ في ظلال القرآن ٤ / ٢٤١٩.

٢ ـ انظر على سبيل المثال:

ـ رحلة ابن جبير (٦١٩هـ)، (تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار).

ـ روض الأُنس ونزهة النفس، لأبي الطيّب الرندي (٦٨٤هـ).

ـ مستفاد الرحلة والاغتراب، للتحبيبي (٧٣٥هـ).

ـ نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثيلانية)، الحسن بن محمّد الوريتلاني (١١٩٣هـ).

ـ رحلة التجاني أبي أحمد التونسي (٧١٨).

ـ رحلة ابن بطوطة (٧٧٩هـ).

ـ تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب، للقلصاوي (٨٩١هـ).

ـ سفرنامه، رحلة ناصر خسرو القبادياني (ولد ٣٩٤هـ ببلخ).

ـ رحلة ابن جابر إلى مكّة.

ـ رحلة إلى بيت الله الحرام، ابن عبد الله الشاكري.

ـ رحلة ابن عثمان الحجازية.

ـ الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز، عبد الغني النابلسي.

ـ الرحلة الذهبية إلى الأقطار الحجازية، أحمد بن علي الشاذلي.

ـ الحلية الحقيقيّة في الرحلة الحجازية، مصطفى كمال الدِّين الصديقي.

ـ الحلية اليمنيّة في الأخبار الحجازية، محمد بن علي عرعار اليمني العنابي.

ـ رحلة الصديق إلى بيت الله العتيق، محمد صديق خان.

ـ الرحلة المكّية، علي بن يحيى الگيلاني.

ـ الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، محمد كرد علي.

ـ الرحلة الحجازية، اللنتبوني.

ـ الارتسامات اللطاف في خاطر الحاجّ إلى أقدس مطاف، شكيب أرسلان.

ـ رحلة الحجاز، إبراهيم المازني.

ـ المجاز بين اليمامة والحجاز، عبدالله بن خميس.